

مفهوم الاستشراق

منذ أن بزغ فجر الحضارة التي شيّدها المسلمون بعد انتشارهم في أقطار الأرض المتنامية شرقيها وغربيها والعالم الغربي يسعى إلى الوصول إلى تلك الحضارة ومعرفة أصولها، ولماذا اختصت أمة العرب بالإسلام الذي رفع من شأنها وجعلها خير أمة أخرجت للناس لإقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فظل الشرق العربي مهوى القلوب الظامئة إلى أصول تلك الحضارة، إذ أقام الغرب العلاقات الكثيرة لاسيما ما يتعلق بالعلوم والثقافة والمعرفة، وبدأوا يرتحلون إلى الشرق العربي "بصورة خاصة" وإن كان الشرق لا يعني دولة العرب فقط، إذ يمتد إلى شرقي آسيا المترامي حيث الصين والهند ، وغيرها من الدول الكبيرة والصغيرة التي دخلها المسلمون وفتحوها وحاولوا نشر الإسلام هناك وحكموها بعض الوقت.

ولكن الأمر لم يكن ليستمر هكذا وإلى عصرنا الحديث إذ صار إلى الصراع بين العرب والغرب، والتغلغل أكثر لمعرفة الشرق وآفاقه الفكرية بدراسة آدابه وثقافته وأصبحت هناك مناهج وأهداف لمن يريد التعرف إلى المزيد عن الشرق، وبدأ ذلك في المؤلفات الكثيرة وترجماتهم وتحقيقاتهم، التي كان لها الأثر - بطريقة أو بأخرى - في النهضة العربية الحديثة بصورة عامة، ونهضة الأدب العربي المعاصر بصورة خاصة، حتى غدا الاستشراق سمة تلك الدراسات والمؤلفات، والمعنى الذي يفهم منها جميعاً، وأصبح الاستشراق علماً له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته ودراساته وأغراضه ومدارسه وأتباعه ومعاهده ومؤتمراته.

ونحن هنا إذ نعرض لآثار الدارسين المستشرقين فيما هو منصب بدراسة الشعر العربي القديم ونعني الجاهلي الذي حاولت الكثير من الدراسات النيل منه أو نفسه أو التقليل من شأنه، والفنية التي يتمتع بها، أو يتسم بها الشعر العربي أو الشاعر الجاهلي الذي رُمي بالجهل وعدم المعرفة، بل استبعدوا منه أي خيال فني أو

فكر أدبي، وأكثر من ذلك نفي البعض منهم "أي من المستشرقين" ان يكون للعرب موروث شعري قد سبق ظهور الإسلام وإلى القرن الثاني الهجري، ممن لم تحتل عقليتهم توارث أجيال العرب ذلك الموروث الشعري الموغل في الفصاحة والبيان والإبداع الفني لاسيما حَفَظْنَهُ من الرواة الذين لم يعرفوا الكتابة ولم يرد الشعر مكتوباً، فكيف يتأتى لتلك الذاكرة ان تحفظ آلاف القصائد ومئات الآلاف من أبيات الشعر من دون أن يكون أي إخلال بالتركيب الفني للقصيدة ومقاطعها وموضوعاتها.

ولو حاولنا معرفة المفهوم العلمي للاستشراق لآبد من معرفة آراء المستشرقين في هذا الصدد، إذ يحدّد المستشرق الألماني "بارت" الاستشراق بقوله: "الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصةً ولآبد لنا إذن: ان نفكر في المعنى الذي أُطلق عليه كلمة "استشراق" المشتقة من كلمة "شرق" وكلمة شرق تعنى مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي". والأمر إلى هذا الحد واضح، ولكن ما معنى كلمة "شرق" في هذا المقام بالذات؟ الظاهر أنّ اسم الشرق تعرض لتغيير في معناه، فالشرق بالقياس إلينا - نحن الألمان - ، يعني العالم السلافي، العالم الواقع خلف الستار الحديدي - كما كان يسمى كذلك في الماضي - ، وهذه المنطقة يختص بها علماء بحوث شرق أوروبا. أما الشرق الذي يختص به الاستشراق فمكانه جغرافياً في الناحية الجنوبية الشرقية بالقياس إلينا ، وذلك الاصطلاح يرجع إلى العصر الوسيط بل إلى العصور القديمة، التي كان فيها البحر المتوسط يقع - كما قيل - في وسط العالم ، وكانت الجهات الأصلية تحدد بالنسبة إليه. فلما انتقل مركز الاحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح "الشرق" برغم ذلك على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط . كذلك تعرضت لفظة "الشرق" في أعقاب الفتوحات العربية الإسلامية لتغيير آخر في معناها، أو إذا شئنا دقة أكثر تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها، فقد انطلق

الفاثون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية إلى ناحية الشمال والشرق فحسب، بل إلى ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال أفريقيا، وتعرّب السكان تدريجياً، وهم الأقباط في مصر والبربر في غربها، ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال أفريقيا ضمن الشرق، ويمتد الاستشراق إلى شمال غرب أفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس، وإن كان المفروض أن اسم الاستشراق يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها . ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط، والمهم هو الموضوع ذاته^(١).

ومنهم من يحدده على أنه "علم الشرق" والوسيلة لدراسة كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب، ودراسة اللغات واللهجات وتقلبات تاريخ الشعوب، بل أنه الارتباط المتين بين التمدّن الغربي والتمدّن الشرقي ويغوص في أعماق دراسة الشعوب الشرقية وكل ما يتعلق بها، ومن ثم فإنه يعنّو من أوسع العلوم موضوعاً وأبعد مدى، أي أنه علم تاريخ الروح الإنساني^(٢).

أما في مفهوم بعض علماء العرب، فالاستشراق علم يحاول أصحابه دراسة الشرق وكل ما يتعلق به من لغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شأ كلها كما هو في رأي الزيات والاسكندري وأحمد أمين وأحمد الشرباصي^(٣).

وفي مفهوم علماء آخرين أنه علم يضم في رحاب ه الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وحضارته، ولهم طبقات من حيث الزمن - القدماء

(١) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: بارت: ١١-١٢.

(٢) ينظر: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر: د. أحمد سمايلوفتش: ٢٤-٢٦.

(٣) ينظر: فلسفة الاستشراق: ٣٠. وينظر: تاريخ الادب العربي: أحمد حسن الزيات: ٥١٢،

المفصل في تاريخ الادب العربي: أحمد الاسكندري: ٢٠/٤٠٨، التصوّف عند المستشرقين:

أحمد الشرباصي: ٦.

والمحدثون- ومن حيث الاتجاه العام نحو الإسلام- المادحون والمنتقدون- والدراسة الشاملة للموضوع لابد ان تقوم على هذا الأساس والترتيب^(١).

ويمكن القول إنّ الاستشراق من حيث المفهوم العلمي حركة علمية تعنى بدراسة الشرق ماضيه وحاضره وما يتعلق به من علوم مختلفة وما تركه للإنسانية من أثر، أضاء أمامها الطريق نحو التقدم والا زدهار^(٢). وانه علم قائم بذاته له خصائصه التي تدل على استقلاله وان أصحابه قد شغلوا وقتاً طويلاً من دون أن يهتم احد بدراساتهم دراسة علمية واعية إلا في أحيان نادرة في معرض النقد^(٣). وهناك امر لابد من معرفته ودراسته والإشارة إليه، متعلق بفلسفة الاستشراق، ألا وهو حركة الاستشراق ودوافعها ونشأتها وأطوارها واتجاهاتها، اذ لها جميعاً أهمية قصوى في دراسة فلسفة الاستشراق واهتمامها البالغ بالفكر العربي الإسلامي عامة والأدب العربي خاصة وأثرها فيهما.

وكان للموقع الجغرافي بين الشرق والغرب أن تنشأ العلاقة بينهما، ولسحر الشرق وتاريخه الخالد الحافل بالأمجاد والبطولات؛ اذ فيه نشأت حضارات وثقافات، وابتدعت آداب، وولدت فلسفات، وكان وما يزال منطقة صراع عنيف دائم، ومسر حاً للانقلابات السياسية والفكرية والاجتماعية.

فالاستشراق يمثل حركة متواصلة الحلقات^(٤) يحاول فيها الغرب التعرف على الشرق علمياً وفكرياً وأدبياً، ثم استغلاله اقتصادياً وثقافياً وسترatégياً وجعله منطقة نفوذ للسيطرة بها على العالم بأسره.

(١) ينظر: انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: مالك بن بنى: ٥-٦.

(٢) ينظر: مصادر الدراسة الأدبية: يوسف أسعد داغر: ٧٧١/٢.

(٣) ينظر: المستشرقون. محمد الحوماني (مجلة الرسالة): ٢٦.

(٤) ينظر: فلسفة الاستشراق...: ٣٩.

وقد بحث المستشرقون في دراساتهم عن الشرق كل ما يتعلق بترائهم وثقافتهم ودينهم وفكرهم بصورة عامة والعربية بصورة خاصة . لكنه على الرغم من أنثو الاستشراق في الفكر العربي إلا أن الكتب المقدمة عن دراسة حركة الاستشراق ما تزال قليلة إلى حد كبير لما يتسم به هذا الموضوع الحيوي من الصعوبة والتعقيد والتشابك^(١).

وهناك دوافع كثيرة لحركة الاستشراق تكاد تكون رئيسة في أطماع هؤلاء المستشرقين وطموحاتهم، منها سبعة رئيسة، وهي : نفسية، وتاريخية، واقتصادية، وايدولوجية، ودينية، واستعمارية، وعلمية . وإلى جانبها دوافع ثانوية وهي "أسباب شخصية مزاجية عند بعض الذين تهَيَّأ لهم الفراغ والمال، واتخذوا الاستشراق وسيلة لاشباع رغباتهم الخاصة في السفر والترحال، أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم . ويبدو كذلك أن فريقاً من الناس دخلوا ميدان الاستشراق طلباً للرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش، أو دخلوه عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصاً من مسؤولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية"^(٢).

فمن حيث الدوافع النفسية، إذ تكمن في طبيعة الإنسان نفسه من حيث هو كائن حيٍّ، وله فكره وخصائصه وآماله وأحلامه وأطماعه وأهدافه ورغباته، وكل ما تمور به نفسه البشرية، ولا بد له من التمتع بوجوده المادي والفكري والنفسي، والرغبة الشديدة في المعرفة والتطلع وجمع المعلومات ومعرفة الاخبار والسير، ولذة ذلك كله في تحمل المصاعب وصولاً إلى ميادين مهمّة وكسباً للمال والتجارة والاستحواذ على الخيرات والسيطرة عليها ومن ثم السيطرة على الآخرين، وجعلهم يتعلقون به وأن

(١) ينظر : المستشرقون والتاريخ الإسلامي: علي حسني الخربوطلي: ٧.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي: ٥٣٣ - ٥٣٤.

يعتقدوا ما أعتنقه من عقائد وأفكار وسياسة وفلسفة ^(١)، م ع رغبة التفوق والاستعلاء على الآخرين. فطبيعة الجنس البشري أن الإنسان مفطور على حب الاطلاع، وهي رغبة كامنة لا يمكن استئصالها، بل هي دافع قوي ينمو مع العقل البشري ويحمل الإنسان على طلب معرفة الحقائق الأساسية الكبرى لهذا الوجود، مثلما يحمله على البحث في علل الأشياء وعلاقة بعضها ببعض الآخر، وكان لابد من الفرار من الجهل والوقوف على الحق، وكشف النقاب عن باطل تقنّ ع بحجاب كثيف يؤهم أنه حق ^(٢).

ومادامت طموحات البشر لا تنتهي أو يحدّها حد أو رغبة، فقد كانت هناك رحلات استكشافية ومعرفية قام بها المستشرقون لبلاد الشرق كان لها أثرها البالغ في تاريخ حركة الاستشراق، ودور بالغ لا يستهان به في إيقاظ الرغبة في مشاهدة

(١) ينظر: فلسفة الاستشراق.....: ٤٠ - ٤١ .

(٢) ينظر: مبادئ الفلسفة: أ. س. رابورت: ٥ - ٦ .

تلك البلاد، ودراسة كل ما يتعلق بتاريخها وحضارتها^(١).

وعندما ظهر الإسلام وبزغ فجره في بلاد العرب وانتشر بتلك السرعة الهائلة العجيبة، رأى الغرب من الأمر عجباً، مآذن شاهقة تدوي من عليها كلمات تكبر الله وتدعوا إليه، ومنابر ينتارع إليها المؤمنون ليسمعوا دروساً في العلوم، ومعاهد زاخرة يتزاحم فيها العلماء وطلبة العلم، ومعاقل جدل مزدحمة يحاول فيها الفلاسفة والمفكرون باحثين عن الحقائق الوجودية.

الأمر الذي أدّى إلى ظهور أناس في الغرب رأوا العكوف على التراث الإسلامي بأوسع معانيه لتعرف أسباب تلك القوة الخارقة ومقومات هذه الحضارة العتيدة، ومن هنا كانت نشأة حركة فيما بعد عُرفت بحركة الاستشراق^(٢)، وقد ولدت أصلاً بسبب حيرة الرجل الغربي تجاه العالم العربي^(٣) وإحساسه الداخلي بالرغبة في مقاومة التوسع الإسلامي^(٤) الذي عبر إلى أوربا يوماً ما، وسيطر على جزء كبير منها. وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الشرق بكلّ ما فيه مجهولاً للعقل الأوربي لزمان طويل ولأسباب كثيرة^(٥) وعديدة لا مجال لذكرها.

ومع ذلك كله فالغرب لم يسكت بل أخذ يسعى إلى اكتشاف الشرق ومعرفة احوال الشعوب ومعرفة علومها وآدابها، وأخذت تنتشر في الغرب معلومات صادقة وخاطئة إشباعاً لظماً فكر الرجل الغربي الأوربي، وقد سد هذا الفراغ الأدب الترفيهي الذي كان له دوره في بعث همم الاستشراق وحماسة أصحابه وقد أدّى تزايد

(١) ينظر: ورقة من تاريخ الاستشراق الألماني (بحث): محمد علي حثيثو (مجلة فكر وفن) ٨٤ ص ٤٤، ١٩٦٦.

(٢) ينظر: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك. المقدمة: لمحمد يوسف موسى

(٣) الحضارة العربية: جاك رسل: (المقدمة).

(٤) ينظر: الفكر العربي المعاصر: انور الجندي: ٢٧٣.

(٥) ينظر: الحضارة الإسلامية: خدا بخش: ٣٧-٣٩.

الاتصالات عقب حروب الأندلس واستعادة صقلية وإقامة دول لاتينية في الشرق، إلى أن تصبح المعلومات الأكثر تفصيلاً والأكثر دقة ضرورية جداً، وذلك من دون إغفال للأحكام المجملّة عن الإسلام من حيث هو دين، أو للروايات الخيالية التي نقلها الأدب الترفيهي الواسع الانتشار^(١)، والذي أثار اهتماماً بالغاً بسبب طرافته وغرابته.

أمّا فيما يخص الدوافع التاريخية لنشوء الاستشراق، فقد كانت العلاقة بين الشرق والغرب عبر التاريخ تأخذ اتجاهات مختلفة بين لقاء وعداء وهدم وبناء، وحاول كل منهما السيطرة على الآخر، وكان صراعاً متواصلًا ما كاد يخمد مرة إلاّ وتأججت ناره، ولاسيما بعد ظهور الإسلام وارتقاء المسلمين^(٢) فلم يعد صراعاً فكرياً بل صراعاً بالسلاح بعد ما غدا الإسلام ذا مكانة واثقة في العالم وفي التاريخ وأحدث فيه ما أحدثه^(٣) وأثر في حركته تأثيراً عظيماً^(٤).

ولا يمكن انكار نشوء الاستشراق في أحضان الأحداث التاريخية والواقع التاريخي لحياة البلدان العربية والغربية على السواء. ولعلّ أحسن البعض بمرارة سيطرة العرب وأراد إنكار فضل حضارتهم على الغرب فأخذوا يشيدون بحضارة اليونان والرومان^(٥). ولا أدلّ على تلك الأحداث سيطرة العرب على بلاد الأندلس وتأسيس إمبراطورية عظيمة بسياساتها و حجمها وحضارتها ظلت قرون أطويلة

(١) ينظر: صورة العالم الإسلامي في أوربا: م. رودنسون: ٥٧.

(٢) ينظر: فلسفة الاستشراق:: ٤٣.

(٣) ينظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: أبو الحسن البديوي: ٨٩ - ١١١.

(٤) ينظر: الإسلام وحركة النثويخ: انور الجندي: ٤٢٧.

(٥) ينظر: المستشرقون والحضارة الإسلامية: مبروك السوسي (بحث) مجلة مرآة الساحل نمرة

تتجر ظلمة العالم الغربي الكه زوتي الذي كان قابلاً تحت نير الكنائس الكاثوليكية والكاتدرائيات المسيحية.

ولا يقل الدافع الاقتصادي شأناً عن تلك الدوافع في نشوء حركة الاستشراق الغربي، بسبب حاجة الإنسان المادية لاستكمال سبل العيش والحياة، وامام نضوب مصادر العيش لا يملك الإنسان إلا البطش واللجوء إلى أساليب السلب والنهب والسيطرة والاعتصاب، أما بالحرب واما بقطع الطرق والتلصص والقرصنة، وما رحلات التجارة عبر العالم إلاّ وجهاً من تلك الوجوه الاستكشافية لتحقيق مآرب الاستشراق، والشرق العربي أرحب الأراضي وأخصبها لاستقبال واحتضان تلك الأهواء والنوازع والأطماع لذا تشبث ذلك الغربي وجعل الشرق محط أنظاره فطلب فيه التجارة الرباحة وتحقيق النفع المادي من الشعوب الشرقية ^(١). وكان امراً داعياً وأكداً لتعلم لغات الشرق وآدابه وشرعوا في تأسيس المعاهد العلمية والجمعيات ونشر الكتب وتصديرها إلى الشرق اذ رأوا فيه رواجاً لنهضتهم الفكرية والثقافية.

ونتواصل مع هذه الدوافع أو تنبثق منها الدوافع الفكرية (الإيديولوجية) في إشاعة الفكر الغربي فضلاً عن لغات الشرق وآدابه- كما أسلفنا- فكان إلى أن ينشأ الصراع الفكري من اجل تثبيت افكار معينة أو اهداف ثقافية وغزو الفكر العربي أو الفكر الشرقي وجعله الاثبت والاقوم والاصح، ولا نرى في ذلك أنّ نشأ مصادفةً أو بصورة اعتباطية "بل نشأ حسب خطة موضوعة" ^(٢) فكان الزحف الغربي إلى الشرق لمعرفة آثاره ومحاربة أفكاره وثقافته، وكان يرمي إلى إضعاف الشرق عامة والعالم الإسلامي خاصة لاقتلاعه من جذوره وإزالته من الوجود، و " تلك حقيقة لامراء فيها، ولم يخف على الغرب انه من غير المستطاع انتزاع العواطف من أفئدة الناس،

(١) ينظر: فلسفة الاستشراق ...: ٤٥ - ٤٦.

(٢) التصوف عند المستشرقين: أحمد الشرباصي: ٧

وليس من الممكن استئصالها بحملة عسكرية أو إنشاء محكمة تفتيش أندلسية جديدة لمحاربة آراء الناس ولغاتهم وضمايرهم وعلاقاتهم، فالمسألة كلها فكرية وعملية، ومحاربتها يجب أن تكون على أسلوب نشأتها: ثقافة وغزو فكري، من أجل هذا نشأ الاستشراق في بلاد الغرب، واخذ جماعة من الغربيين يعكفون على لغات الشرق وتاريخه ودينه دراسةً واستذكاً وحفظاً وتغلغلاً في البحث والتتقيب، لينفذوا من وراء ذلك إلى الوصول إلى الغاية التي يعملون من أجلها^(١).

ولا تبتعد عن تلك الدوافع - فيما تقدم - الدوافع الدينية التي كثيراً ما تكون دافعة صاحبها إلى طلب العلا وبلوغ الغايات السامية وهي التي ترسم معالم حياته وتتحكم في تصرفاته وإذا كان الفلاسفة وعلماء الاجتماع لم يحددوا بعد دور الدين في التحولات التاريخية تحديداً كاملاً، فمن المؤكد أن يكون للدوافع الدينية دور لا يقل شأواً، بل نراه خطيراً في نشأة الاستشراق وميلاد فلسفته واتجاهاته^(٢).

ونعود في القول إلى مجيء الإسلام وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، من جور البشر وظلمه إلى إقامة صروح للعدالة والمساواة وإبلاغ الحقوق أهلها، وإشاعة روح التسامح ونبذ كل تعصب قبلي أو فردي. الأمر الذي أذهل عقول الغرب ممن لهم فكر قويم إزاء ما يرى من فعل الإسلام في محبيه ومعتقيه، فتوافدوا ينهلون من معاهد الإسلام ليفيدوا ويعلموا الآخرين أمثال "سكوت وبيكون" وغيرهم، وما كان لليهود والنصارى من سبل آخر إلا أن يؤيلوا على تعلم لغة العرب والمسلمين ومعرفة عقيدة هذا الدين الجديد الذي ساد به أهله الأرض شريقها وغربها، هذا وقد ظلّت

(١) المستشرقون والاسلام: حسين الهراوي: ١١ - ١٢.

(٢) ينظر: فلسفة الاستشراق.....: ٤٨.

اللغة العربية لوقت طويل لغة علم وثقافة وفلسفة وسبيلاً وحيداً للنهوض والازدهار، وكانت اسلم طريق لفهم تعاليم الديانات السماوية الآخر^(١).

حتى نرى أن هناك من يُرجع فضل دراسة اللغات الشرقية إلى دور الارساليات التبشيرية الموفدة إلى البلاد الإسلامية أو الشرقية الذين حملوا معهم تلك اللغات عند رجوعهم إلى بلادهم، لاسيما المجادلة في العلوم والآداب كان ضمن اختصاص الالتيوس أي "الرهبان"، وهم الذين قبضوا على ناحية العلوم والآداب ولغات الشرق واختصوا بها ومنعوها الجمهور من تعلمها^(٢).

وما اتجه هؤلاء نحو تعلم العربية إلا لأنها أصبحت لغة العلم والفلسفة، ولابد لهؤلاء الرهبان من معرفتها للدفاع عن عقيدتهم ومنع انتشار الإسلام الذي بدأ يزحف على معاقل النصارى ويطرق أبوابها. ومن هنا فكرت البابوية في روما بمواجهة الزحف الإسلامي بالتبشير المسيحي في البلاد الإسلامية نفسها، واستعادة ما يمكن استعادته، "وحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق والتبشير كيف نشأت؟ سريلقان جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية للإشراف المباشر من كبار أعبارها"^(٣)، فضلاً عما خلّفته الحروب الصليبية في نفوس رعاياها من آثار مرة عميقة، وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي، مما ولّد الشعور عند المسيحيين لإعادة النظر في شرح كتبهم - كاثوليك وبروتستانت - لذا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية، وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية، لان الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى، لاسيما ما يتعلق بالجانب اللغوي^(٤) فضلاً عن رغبة

(١) ينظر: فلسفة الاستشراق :٤٨.

(٢) ينظر: تاريخ دراسة اللغة العربية في أوربا يوسف جبرا: ٧.

(٣) تراثنا بين ماض وحاضر: عائشة عبد الرحمن: ٥٢.

(٤) ينظر: فلسفة الاستشراق :٤٩.

المسيحيين في التبشير فاقبلوا على دينهم ليتسرى لهم إعداد الدعاة وإرسالهم إلى بلاد المسلمين^(١).

ومن الدوافع الداعية للاستشراق الدوافع العلمية وهي ذات شأن عظيم في حركة الاستشراق ونشأته، إذ يُعَدُّ العالم العربي كنزاً حضارياً لانظير له في بقاع الأرض على الإطلاق، ففيها قامت الحضارات، وشيدت صروح المعارف الانسانية، وولدت لغات وفلسفات وعلوم وفنون، ونزلت شرائع الأديان السماوية . وأثارت هذه كلها حفيظة الغرب للإقبال على الشرق بشغف، والنهل من علومه ومعارفه، وأدركوا ان لابد من دراسة علوم الشرق اذا ما أرادوا النهوض لبلادهم وبناء حضارة لهم- وان كان الباعث في بداية الأمر باعاً دينياً وحربياً في القرون الوسطى- ثم تحول بعد ذلك إلى أغراض علمية هدفها كشف ما تكنّه العلوم والفنون الشرقية من كنوز ثمينة، ويتقدم هذه الدراسات اتصل حبل المودة بين الشرق والغرب وتوثقت العلاقات العلمية بين الدول الشرقية والغربية، وكان للمستشرقين فضل في تنبيه الأفكار بمؤلفاتهم إلى إدراك الحقيقة الخالدة التي طالما أنكرها الغربيون، وهي أنَّ المدنية الأوروبية الحديثة مبعثها الشرق وعلومه وحضارته وفلسفته^(٢).

وبدأت إرساليات العلم تدب إلى العالم الشرقي الإسلامي- العربي خاصة- والتأثرو بمنراه جه العلمية والفلسفية والفكرية في استنباط الحقائق، ومنهجيتهم في البحث والاستقصاء والتجريب والملاحظة والقياس . فأفادت منها أوربا كثيراً لاسيما بعد عودتهم إلى بلدانهم إذ كانوا شعلة علمية تثير غياهب الجهل وأخذت تنشر العلوم والفلسفات والآداب والحقائق، فدفعت بشعوبها إلى الأمام خطوات جبارة لا يمكن

(١) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي: ٥٣٣.

(٢) تاريخ دراسة اللغة العربية بأوربا: يوسف جبرا: ٥٢.

التغاضي عنها عند النظر في تطور العلم في العالم وآثارها في النهضة الأوربية المعروفة والتي أثّرت من ثمّ في العالم بأسره.

ولا نعدم أن يثير سحر الشرق بما فيه من الطبيعة والموقع الجغرافي وكنوز الأرض والعقول على السواء، أن يثير ذلك كله حفيظة الغرب ويؤصل في نفوسهم طمع الغلبة والسيطرة على الشرق معرفياً وحضارياً وأرضاً وموقعاً، فتنشأ عندئذ الدوافع الاستعمارية البحتة والمحضة إزاء ذلك السحر بكل أشكاله وأصنافه، ويمكن القول إنّ حركة الاستشراق قامت في أول الأمر على أكتاف المبشرين ثم اتصلت بالاستعمار^(١).

ومن الجلي "أنّ! الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق، وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية، فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق وارتياذ أقطاره وكشف آثاره وفتح كنوزه، وإحياء أدبه وطبع كتبه وإبراز فنّه، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه، يُطلب به الوقوف على لغات الشرق - ميّتها وحيّها - والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها، وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع وأنشأوا المكتبات وألّفوا الجمعيات وأقاموا المؤتمرات، وأصدروا المجلات، وجمعوا الخبوطات، ونشروا نفائس الكتب وعُظّموا عليها ودَيّولها بالفهارس المختلفة في الأسماء والموضوعات والأمكنة، ثم كتبوا البحوث القيمة في تحقيق الألفاظ وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء وكشف المجهول على الأسلوب العلمي الصحيح، والمنهاج الفطقي الحديث، فكانوا في ذلك قدوة لمعلمي اللغة ومؤرخي الادب من العرب في تحضير المادة وتنظيم البحث وتوخيّ الدقة وتحريّ الصواب"^(٢).

عناية الاستشراق بالتراث العربي

(١) ينظر: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي: ٥٣٣.

(٢) تاريخ الأدب العربي: احمد حسن الزيات: ٥١٣ - ٥١٤.

لاشك أن الموطن الأصلي للسلاسل البشرية الحضارية موطن بلاد العرب منذ آلاف السنين، إذ بزغ فجر الحضارة الإنسانية بأسرها منذ خمسة آلاف سنة أو أكثر من ذلك في وادي الرافدين ووادي النيل، وحدث أن اندفعت سلاسل عديدة من الشعوب نحو الشمال بين الحين والآخر ووقعت المصادمات التي لا بدّ منها، وتعاقبت الثقافات والحضارات، وأخذ بعضها من البعض الآخر وتلاقحت الثقافة اليونانية بثقافة الشرق لاسيما بثقافة مصر فكان لها أثرها الواضح في الثقافة اللاتينية، وامتد أثرها إلى النهضة الأوروبية في العصر الحديث.

فالثقافة الإنسانية ذات موارد متعددة بين شرقية وغربية، يغذي بعضها البعض الآخر ويرتشف من منابعها وتحرص الحضارات المختلفة على تعرّف أمجاد الماضي والأخذ عنها بصرف النظر عن أصولها ومصادرها^(١).

وبعد مجيء الاسلام والدعوة إلى العلم وتعلم ما جاء في القرآن الكريم امتثالاً

لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ خَلَقْنَاهُمْ وَحَدَّدْنَا آلِهَتَهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ وَأَعْطَيْنَاهُمْ أَزْوَاجًا وَعَلَّمْنَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نَشَاءُ غَدِيرًا﴾

﴿وَاتَّبَعُوا لِلْأَمْرِ الْمَحْمُودِ﴾ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". إذ قامت حضارة عربية إسلامية راقية جذبت إليها عقول الغرب وأنظارهم فراحوا يتهافتون على الشرق للنهل من تراثه وثقافته وحضارته.

وكان لانفتاح الفكر العربي إزاء الحضارات والثقافات بلا تزمّت أو تعصّب أو ضيق نظر، العامل الأكبر في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ازدهاراً شاملاً

(١) ينظر: في الفلسفة الإسلامية: إبراهيم بيومي مذكور: ٧.

(٢) سورة العلق: الآية ١.

وراءاً أضاء العالم في العصر الوسيط، والذي لو رُجِع إليه وجُعِل منهجاً ومبدأً
كانت للعرب مكانتهم في الفكر الإنساني حاضراً ومستقبلاً^(١).

وبعد النقاء شعوب الغرب المتخلّفة بالعرب وتعلّمت منهم وتحضّرت في
ظلالهم وتلقّت العلوم على أيدي معلميهم ومؤدبيهم، ظهرت حركة الاستشراق التي
استهدفت أولاً وقبل كل شيء دراسة حياتهم وما يتعلق بهم من دين وتراث وعلوم
وفنون وحضارة وأدب. ثم شرعت تبحث في ثقافات وتراث الأمم الأخر وتأثروا بها
تأثراً كبيراً ثم بدأوا يدرسون تراث الأديان الثلاثة، واشتدت عنايتهم بتراث فارس
واليونان والرومان بل تراث مصر والهند والصين، وشملت دراستها منطقة الشرق
بأسرها وكما أظهره مؤتمر الاستشراق الأول في سنة ١٨٧٣ حتى مؤتمره الأخير في
سنة ١٩٧١. وهو هيئة علمية متشعبة الأطراف متعددة الجوانب تُعنى بالحضارات
الشرقية في تاريخها الطويل: القديم والمتوسط والحديث والمعاصر، وتعالج المظاهر
المختلفة لتلك الحضارات من دين ومعتقدات وعلم وفلسفة وأدب ولغة وفن وآثار
وتتبع تطور اللغات الشرقية كالمصرية والفينيقية والحبشية والآرامية والسريانية
والسنسكريتية والصينية، ولغات أحر كالأردية والفارسية والتركية، وتمنح العربية قسطاً
غير قليل من العناية، وتكشف عن أصول الفلك والتنجيم والسحر والشعوذة، وتتعمق
في دراسة الحفريات والكشوف الأثرية المختلفة^(٢).

وعلى الرغم من هذا الاهتمام بدراسة تراث الشعوب فقد نال التراث العربي
الإسلامي القسط الأوفر من تلك الدراسات الاستشراقية، لأن الثقافة العربية تعبير عن
الوجه الأساسي لعصر النهضة، إذ كانت العربية الرابط الأساسي بين الحضارة
القديمة والثقافة الحديثة، وعلى مدى خمسمائة عام منذ سنة ٧٠٠ - ١٢٠٠ ميلادية

(١) ينظر: دور العرب في تكوين الفكر الاوربي: عبدالرحمن بدوي: ١١٣ - ١١٤.

(٢) ينظر: مؤتمر المستشرقين في دور انعقاده الثامن والعشرين مجلة الفكر المعاصر يوليو

١٩٧١م، إبراهيم بيومي مذكور.

إذ سيطر العرب والإسلام بقوته وعلمه وتفوقه الحضاري، وقد أسهمت الحضارة العربية بنضرب ملموس وخلاق في الثقافة العالمية^(١).

ومن بين مجالات التراث العربي الذي عني المستشرقون بدراسته القرآن الكريم والدين الإسلامي والحديث النبوي الشريف وحياة الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) والفقه الإسلامي والفلسفة والحضارة العربية الإسلامية وعلوم العرب الطبيعية والفنون العربية الإسلامية وعلوم العرب الإنسانية واللغة العربية والأدب العربي المعاصر والقديم.

والذي يعنينا من كل تلك الاهتمامات والدراسات، ما يتعلق بدراسة الأدب العربي القديم وتحديدًا الشعر الجاهلي - موضوع دراستنا - الذي ظلّ يشكل مشكلة رئيسة لمن يتصدى له بالدراسة، إذ كان له الدور البالغ في حياة العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام "حتمًا"، وإن إهماله في البحث إهمال لجانب مهمّ في حياة العرب ومعرفتهم معرفة صحيحة، ومن ثمّ فالأدب العربي - شعرًا أم نثرًا - يمثل محوراً رئيساً في الحضارة العربية التي أثرت في جميع الحضارات والثقافات مما يدل على أهمية هذا الأدب للفكر العالمي عامة، والفكر الأوربي خاصّة.

وان كانت أعظم مآثر الحضارة العربية في الحفل الروحي قد أفرغت في اللغة، فإن أسمى منجزاتها بعد القرآن هو الشعر في نظر العرب، والذي بدأ عصره الذهبي في القرن السادس الميلادي، إذ أصبح الشعراء ينظمون بلغة شعرية واحدة وبناء فني موحّد للقصيدة الشعرية التي ينظمون فيها موضوعاتهم وأفكارهم، وقد ألّزمت هذه القواعد الشعرية التزاماً صارماً حتى أواخر العهد

(١) ينظر: حضارة بابل وآشور. غوستاف لوبون (المقدمة).

الأموي عندما وضعها دعاء الانشقاق في ظلّ الخلافة العباسية موضع الشك^(١).
 وظهرت أسماء لامعة للكثير من المستشرقين ممن قاموا بدراسة الأدب العربي
 والتعرض لتأريخه بالدراسة وللشعر العربي موضع دراستنا . ومن هؤلاء ما قدمه
 بروكلمان في كتابة "تاريخ الأدب العربي" سنة ١٨٩٨م الذي يُعدّ خير كتاب جامع
 عن الأدب العربي . وكتاب نيكلسون "تاريخ العرب الأدبي" . فضلا عن أسماء
 مستشرقين آخرين عنوا بالأدب الجاهلي ودراسة المعلقات التي تعد بحق قمة من
 روائع^(٢) الأدب العربي، من هؤلاء: نولدكه وبلاشير وبروكلمان وهناك من درس ذلك
 الأدب وبحث فيه لاسيما الشعر الجاهلي لكنه أنكر أصالة ذلك الأدب الجاهلي عامة
 وإنتاجه الشعري خاصة ومذاهباته بوجه أخص^(٣)، أمثال مرجليوث وليال ودلافيدا.
 هذا فضلاً عمّا قام به قسم آخر من المستشرقين بتحقيق كتب التراث العربي
 والمخطوطات العربية، وهي كثيرة جداً تمثل بحق جهد هؤلاء المستشرقين وعنايتهم
 الفائقة بالتراث العربي.

(١) ينظر: الإسلام والعرب: روم لاندو: ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) ينظر: محاضرات في الأدب: عبد الحميد المسلول: ٢٠١، ٢٩٣.

(٣) ينظر: مصادر الشعر الجاهلي: ناصر الدين الأسد: ٣٥٢، ٣٧٦.